حكايات طبيّة

محمد الحاج صالح

إسعافٌ في الريف

اسْتُدعيتُ على عجلٍ لزيارة مريضة. كانتْ لهفةُ الرجل الذي أتى لاصطحابي تُوحي بأنّنا قد نلحقُ المريضةَ حيّةً، وقد لا نلحقُ. في تلك الأيام لم يكن عددُ الأطباء كثيراً كما هو اليوم، لذلك كانت العياداتُ تغصّ بالزوار، وقرارُ ترك هؤلاء والذهابُ إلى إسعاف منزليّ ليس بالأمر السهل كما قد يتخيّلُ المرءُ، لكنّ الطبيبَ في النهاية سيحسمُ أمره لصالح الزيارة الإسعافية، إذْ من يدري لربّما كانتْ زيارتُه إنقاذاً لحياةٍ. الإشكالُ هو أنّ نسبة "الإسعاف" أي الحالات الحرجة بين ما يُسمّيه الناسُ "إسعافاً!" لا تزيد عن العشرة بالمائة.

كان علينا أنْ نلتفّ في طريق تُرابي حول الجزءِ الشمالي من بلدة "تل أبيض"، وأن ندخلَ في بستانٍ كثيف الشجر. وعلى الطريق الممتدّ إلى المنزل كان جمعٌ من النساء يحثّ الخطا. تلك عادةٌ غريبةٌ فعلاً! ما إنْ يسمعنَ عن مرضِ إحداهنّ حتى يتجمّعنَ للزيارة. يَجلسنَ حول المريضة ويبدأنَ بالهذر والثرثرة. واجبُ الزيارة هذا يكرهُهُ الأطباء، فالأفضلُ هو بكل تأكيدٍ فرضُ عزلةٍ على المريض. لكن هيهات!

بضعُ أشجارِ رمّان تفصلُنا عن حرس الحدود الأتراك. هناك تحت داليةِ عنبٍ وجدتُ المريضة ممددةً على فراش مُرتجلٍ ومُغطاة بغطاءٍ خفيف، تحُوطُها نساءٌ واجماتٌ يرسمنَ على وجوهِهنّ غمّاً وحزناً.

سألتُ: ما بها؟ ما الذي حدث؟ فلم أتلقّ جواباً. سألت مرّة أخرى، ومرةً أخرى لم أتلقّ جواباً. عندئذٍ سألت عمّنْ هي أقرب للمريضة. كانتْ أختُها. هكذا علّمتْنا التجربةُ في الريف. لا تسألْ جمعاً من الناس، فإنّكَ لن تستقبلَ ردّاً. اعزلْ شخصاً واحداً، ثم اسأله تجدْهُ طيّعاً مُتعاوناً. وهكذا علمتُ من أختِها أنّها وقعت فجأة. كانت تتكلّمُ، وفجأة مال رأسُها وسقطتْ على الأرض.

"استجوِبْ جيّداً أيّها الطبيبُ فإنك ستهتدي. الاستجوابُ الدقيقُ نصف الطريق" هذه كلماتُ أحد أساتذتِنا. ألححتُ بالسؤال عن الظروفِ التي كانت فيها المريضة قبل أنْ يُغمى عليها، فلمحتُ من طرفٍ خفي أنّ لهجةَ الأخت تخفي خلفها شيئاً ما. سألتُ بشكلٍ مُباغتٍ لا يتركُ فرصةً للتفكير: هل كانتْ خائفةً أو قلقةً أو تشاجرتْ مع أحدٍ؟ هنا ارتسمَ ذاك التعبيرُ ليس على وجه الأختِ فقط، وإنما على وجوهِ النساء الحاضرت أيضاً.

ذاك التعبيرُ الذي أعرفُهُ جيّداً والذي يعني أنّني وضعتُ يدي على مَكمن الداء. هنّ لن يصرحنَ ولن يقلن شيئاً، فهذه منطقة يحرّمُ فيها الكلامُ. وأنا أعلمُ ذلك. لكنني أعلم جيداً أيضاً أنّهن وضعن المفتاح في يدي.

تأكّدتُ تمام التأكّد عندما شرعتُ بالفحص ولاحظتُ الذبابةَ التي حطّتْ على زاوية أنف المريضة، حيث راحت الذبابةُ تلعّب أطرافها وتمسّدُ أجنحتَها، آنذاك رأيت فمَ المريضة يتكوّرُ ويميل إلى الجانبِ لينفخَ الهواء ويطردَها. لا جدلَ أنّ الغائبَ عن الوعي لنْ يحسَّ بذبابةٍ تتوضعُ على أنفِه.

أكملتُ معاينتي. وليس دون صراعٍ في النّفسِ يتعلّقُ بالأخلاق الطبيّة بين "الصدق" و"الكذب". قررتُ أخيراً أن أكذب كذبةً بيضاء.

قلتُ: سأعطيها حقنةً وسيأتي مفعولُها بعد نصف ساعة... هنا ضبطتُ المريضةَ وهي تختلسُ نظرةً إلى ساعة يدِها من تحت أجفانها المسدلة... أكملتُ: بعد نصف ساعة ستنهضُ بإذن الله. لكنّها يجب أن لا تتعرّض من الآن فصاعداً لضغطٍ نفسي. يجب أن لا يزعجُها أحد...

نهضت المرأةُ بعد نصف ساعة بالتمام والكمال وتلفّتتْ وهي تقول: أين أنا؟ كأنّي نمت .

كانتْ"المريضةُ!" قد تشاجرتْ مع زوجها اللعوب الذي يشتغلُ سائق شاحنة بين سورية وتركيا والعراق، والذي كثيراً ما سرتْ عنه شائعاتٌ تتعلّقُ بالنساء .

تلك الحادثةُ أجبرت الرجلَ على أن يبقى في البيت بضعة أيامٍ ريثما تصحّ الزوجةُ المكّارة، لكنّها أيضاً منحتْني سمعةَ الطبيب الحصيفِ التي سأستفيدُ منها أيّما استفادة!

أطباء أيام زمان ذهب

كان مثل هذا يحدثُ في سورية أوائل ثمانينيات القرن الماضي، فإمّا إن مهنة الطبّ كانت ناقصة التنظيم، أو أنّ وجدان الأطباء كان ضعيفاً ضامراً. أنا شخصياً أخجلُ من إيراد هذه المعلومات. سترون أنني محقٌّ.

فلْندخل في صلْب الموضوع دون مواربة.

يتذكّر الناسُ في أريافنا وبلداتنا الريفية أنّ المريض كان يأبى أن يخرج من عيادة الطبيب دون أن يحقن بحقنة أو "إبرة" كما يسميها العامّةُ. كانت الإبرةُ هي العلاج وما عداها من شراب، وحبوب، فنوافلٌ يُمكن الاستغناءُ عنها .

كأنّ الأطباء استمرأوا اللّعبةَ، أو إنهم هم من اخترعوها. فقد كانوا يقتنون ثلاث أنواع من "الأبر". الأولى "فلاكونة" من بودرة "الستربتومايسين". و"الفلاكونة" تعني أن الزجاجة الحاوية على الدواء لها سدادةٌ من البلاستيك. عندما تُحلّ البودرةُ ينتج سائل ثخين مائل للصفرة. الثانية زهرية اللون في زجاجة صغيرة مُعنّقة، تُسمّى لدى الأطباء بـ"أمبولة"وتحتوي فيتامين B12. والثالثة تشبه الثانية أي أنها مُعنّقة أيضاً وإنما أكبر، والسائل في داخلهامؤلف من فيتامين C وكالسيوم. هذه الأخيرة ذروة العلاج. يطلبها المرضى وذووهم بإلحاح، فهي تعطي تأثيراً عميقاً في الجسد، إذْ تجعلُ المحقونَ بها يحسّ بنمْنمة كما لو أن جيوشاً من النّمل تغزو جسدَه، ويحسّ أنّ دفقاً من بخار يكاد يصعد من أنفه، وأن انفلاتاً في مصرّاته يوشك أن يحدث. كلّ هذا سيشعر به المريض إذا ما جرى الحقنُ بسرعة. ثوانٍ ويعود الجسدُ إلى حالته الطبيعية.

ما إن تخرّجنا، نحن الجيل الجديد من الأطباء المزهوّين بعلمنا، حتى اصطدمنا بتلك الممارسة. شرعنا بدعاية محمومة ضد تلك الأبر. لكننا أُحبطنا عندما رأينا الناس يتجنّبونا غير مُصدقين ادعاءاتنا في أن حقن الأبر ما هو إلا شعوذةٌ.

نعم، هناك أمراضٌ تحتاج إلى الحقن، إنما هي محصورة ومعروفة. وكذلك يجب أن لايكون الحقن دورياً إلا للضرورة القصوى. تلك كانت حججنا. لكنْ على من تقرأ مزاميرك يادووود!

أُسقط في أيدينا، واشتكينا للنقابة، التي كانت لجنتها الإدارية من الأطباء العتيقين أصحاب الأبر. لم يجادلونا، لكنهم احتجوا أن الناس لن يقبلوا علاجاً دون حقن.

أذكرُ مرّة ونحن في قلب الجدل عن تلك الممارسات وأمثالها في مقرّ النقابة، حين حضر شيخٌ يبحث عن أحد أطبائنا العتيقين، وإذْ وجده بيننا.قال:

. يا دكتور ذهبت إلى العيادة، فما وجدتك... واليوم موعد الإبرة. نسيتني!

أخرج تلك "الأمبولة" المكونة من الفيتامين C والكالسيوم، وشرع فوراً بالتشمير عن ذراعه.

قلتُ وأنا في أشد الحنق، لأنني أدركتُ أن زميلي الأقدمُ يحقن هذا الرجل في مواعيد ثابتة:

. يا عمْ، تكرار هذه الأبر ضار... وإذا ما حُقنت بسرعة ربما أدتْ إلى توقّف القلب.

قال الشيخ باستغراب واستهانة وهو يعلم أنني لا بدّ وأنْ أكون ابن أحد معارفه:

. ابن من هذا الولد؟

ارتبكتُ، وشعرتُ أنني أتصاغر، وأعجز عن الكلام. ثمّ أزداد اضطراباً بسبب الكلمات اللئيمة التي لفظها الطبيبُ ذاته الذي وصف الدواء وهو يتصنّع المزاح:

. هذا... ابن الحاج فلان. وهو طبيب مثله مثلي!

نبر الشيخ جادّاً:

. يخسأَ... من يقارن الذهب بالنحاس؟! أنتم الأطباء القدامى ذهب. ذهب خالص... أما أولاء... الجدد! (وكأنه استكثر علينا النحاس)... تَنَكْ... إي والله تَنَكْ

الروس والشوايا والليمون

ما كنا نحن الشوايا أو المنحدرين من أصل شاوي منشان ما يزعل البعض منا لأنه لا يفهم أو لأنه يستعر، ما كنا لنعرف الليمون واستخدامته. كنا نعرف أنه حامض وبس. كنا نعرف ملح الليمون، أي نعم. أمّا الليمون ذاته، فلا. كنا نضع ذرتين بالضبط ذرتين كيماويتين فقط على السلطة التي نسميها زلطة ونضرس، ونقول حامضة. مع الزمن عرفنا قيمة الليمون العظيمة. ولكننا بقينا نضرس حتى لمرآه. مرة من المرات وكنت طالباً في الصف السادس الابتدائي، وكانت هناك مباراة كرة قدم بين أحد ناديي المدينة "النهضة" أو "الرشيد" وبين نادٍ من الاتحاد السوفيتي، روس بيض. هل يوجد أحدٌ منكم يفهمني كيف ولماذا يأتي فريق من روسيا قاطعاً كل هذه المسافة و في هذاك الوقت، يعني في عام 1965من أجل أن يلعب مع فريق رقاوي... حقّاً إن الروس لمهزلة من يوم يومهم. المهم وقبل بدء المباراة وقت التحضيرات والتحماية رأيت كما يرى الغر المتفاجئ سحّارةً من الخشب متروسة بالليمون، فاستغربت. لحظات وبدأ أفراد الفريق الروسي يتناولون حبات الليمون واحدة واحدة، فإما يقشرها الواحد منهم مثلما نقشر البرتقال ويلتهمها دفعة واحدة أو على دفعتين والعصير يشرشرمن زاويتي الفم، يا لطيف. وأخرون يفدقون الليمونة بسكين إلى نصفين كما لو أنهم يفدقون جبسة صغيرة، ويفتحون أفواهم إلى السماء ويعصرون، فتندلق العصارة، وأنا أضرس عنهم وأكش وأتكشكش وأرتعش مثل رضيع عُصرت في فمه نقطتا عصير ليمون. صدقاً كان إحساساً رهيباً أنْ أتصور أنني عصرت بفمي ليمونة و كل جسدي يرفض ويضرس مع أنني مجرد مشاهد.

وعندما صرت طبيباً عرفت فوائد الليمون، وأنه في حالة رفاقنا الروس كان الهدف للتقوية، وضد أمراض الشتاء، وربما و لأنهم آتون من بلد شيوعي حيث كان الليمون بالنسبة لهم ترفاً و يجب الآن أن يغرفوا منه حتى يشبعوا. كان الوقت شتاء بالمناسبة. وما أظن فريقنا الرقاوي إلا كان مجبراً سياسياً أن يخرج أعضاؤه من الكمكمة في البيوت وتحت اللحف ليلعبوا مبارة، مرحبا مباراة!... بأيدهم حق والله، فما كنّا في ذاك الوقت لنؤمن ولا بأي شكل من الأشكال أن الشتاء يصلح لمباراة، وأنكَ يمكنك أن تلعب كرة قدم وأنت بالشورت والتي شيرت الرياضي. شيئ فوق التصور.

المهم ما زلت أضرس ويتكشكش جسدي من الليمون. وحتى الآن وأنا في خريف عمري أستغرب كيف للبرغش أن يجتمع على ليمونة مفدوقة منسية في المطبخ.... كيف للبرغش وهو بهذا الحجم الضئيل أن لا يضرس؟ كيف له أن يحوم رفوفاً رفوفاً، ويحط... ولا شك أنه يلعق، وإلا ماذا يفعل؟

أم سعيد

على الرغم من أنني طبيب "أم سعيد"، فإنني انتبهت إلى الأمر لأول مرة في مساء 28 شباط "فبراير" 1991 فقد بدأ الهجوم الجويّ على العراق. أمر غريبٌ أن ألحظ هذا في ذاك الجو بالذات! فالراديوات والتلفزيونات تصخب، والناس تتحدث بصوت عال، وعيادتي في قلب السوق حيث يتجمّع كل ضجيج المدينة. صخبٌ وضجيج وتوتر وتشتيتُ انتباهٍ ومع ذلك التقطتُ النّظم الشاذّ. كان ولا شك ضعيفاً وغير مميز. لكن مع مرور الزمن أضحى واضحاً كما لو أنه صوتُ طبل مخروق. وعندما غادرت سورية في الـ2002 كان الطبل قد رمّم ذاته، وراحتِ الضرباتُ تأتيني قويةً عبر السماعة كضربات طبل فرقة الشبيبة. الطبل الكبير.

إذا كانت قلوب الناس تضرب بانتظام "لَبْ دَبْ. لَبْ دَبْ. لَبْ دَبْ" فإن قلب أم سعيد كثيراً ما تصرّف بطريقة أخرى ليضرب "لَبْ. دَدَبْ" ثم يصمت طويلاً ليقول "لَبَبْ... دَدَب". يصفن مرة أخرى للحظات، ثم يتذكر فجأة، فيتسارع "لَبْ دَبْ. لَبْ دَبْ... دَدَبْ...دَدَبْ. لَبْ. دَدَبْ دَدَبْ...دَدْ دَدَدْ" ثم يصفن. إنه قلبٌ غريب. والأغرب أن تعيش أم سعيد في هذه الموسيقى الفوضوية تسعة عشر عاماً.

ما زالت أخبار أمّ سعيد تأتيني. وما زالت أمّ سعيد على عادتها، تجلس أمام منزلها على بساط من القطن صيفاً، وربيعاً، وخريفاً، وجزءاً من الشتاء حين تسطع الشمسُ. فهي لا تستغني عن عرشها الشعبيّ على الرصيف. تتناول أم سعيد فطورها وعشاءها وأحياناً الغداء أيضاً هناك في الموقع ذاته، على الرصيف. أما عند العصرونية المؤلّفة عادة من الخبز والشاي أو الكعك والشاي، فتنْعقدُ أوسع الجلسات، حيث تلتمّ نساءُ الحارة بهدف متعة الحديث، وبهدف مراقبة الأطفال المنتشرين في الشارع وفي الساحة... كل الأخبار تُتداول هنا. لا شيء محرّماً. كلّ "الخطبات" وتدابير الزواج انطلقت من هنا، وكل أنواع النميمة والشجارات الظريفة تأسست هنا. أيّ معلومة خافية ستظهر هنا، وأي سرّ لا بد سيفتضح هنا. وأي همسة قالها رجلٌ لامرأته ستجد لها صدى هنا. كل شيء يتضخّم حتى يصبح جبلاً من كلام، وكل شيء يمكن أن يصغّر حتى ينتهي هباء. مصنع كلام لا يهدأ. إنها مملكة أم سعيد .

أم سعيد "سجلٌ مدنيّ" للحارة وما جاورها. تعرف مَنِ المارّ، أو على الأقل تحزر من أيّ عائلة هو. فإذا ما كذبتْها أو شكّت إحدى الحاضرات، أوقفتْ هي المارَّ وسألتْه أَلستَ فلان ابن فلان وفلانة. بلى؛ يأتي الجواب إيجابياً في 99 بالمائة من الحالات. "سلم على أمك" تقول أم سعيد. وهي في هذه الحال لن تصعّر خدها متفاخرةً بموهبتها، بل ستحوّل الحديث بعيداً كي لا تحرج الجلِيسةَ.

أمّ سعيد تقوم على مراحل. تغرسُ كلتا يديها في الأرض، ثم ترفع عجيزتها. تدفعُ قوّتها عبر ذراعيها. تضع يداً على ركبة ثم على منتصف الفخذ، وتلحق اليد الأخرى بالأولى، بينما يأخذ ظهرها بالا نتصاب ببطء. وأخيراً تعتدل مع زفْرة من أنجز المهمّة. تلك هي أم سعيد المرأة الضخمة التي تزن أزيد من مائة وعشرين كليو غراماً، وتفرع إلى أزيد من الـ185 سنتمتراً. الولودُ أمّ الأولاد الثمانية والبنات الست. بطلةُ الانجاب.

لحظةَ وداع عائلتي في نيّة السفر من البلد بلا عودة، كانت هي في جلستها مع امرأتين أوثلاث. كأنّي بها أحسّت أن في الأمر شيئاً، إذْ ندهتْ بصوت عال "تروح بالسلامة... ألف سلامة" ولم تقل "تروح وترجع بالسلامة" كما هي عادتها، وكما هو متوقّع، فأنا لا أذكر مرة خرجتُ فيها من بوابة منزلنا وبيدي حقيبتي عازماً على السفر، إلا وكانت هي هناك... تتمنّى لي ولغيري السلامة.

أم سعيد ذات القلب الفوضوي في موسيقاه!

أنا صوابي براسي

قال الدكتور اسماعيل الحامض إنه كان في سنته الدراسية الأخيرة للدراسات العليا في حلب عندما حدثت حالة طوارئ غير مسبوقة. عشرات الجرحى في الإسعاف وفي الممرات وفي الأجنحة وفي غرف العمليات، إضافة إلا قتلى نقلوا وهم موتى أو أنهم توفوا في المشفى. استنفار تام واستدعاء للإطباء والممرضين والممرضات والفنيين جميعاً وفوراً. يوم قيامة.

في ريف من أرياف حلب حصلت مشاجرة بسيطة على خلفية خلاف على أرض. تطورت الأمور خلال أيام إلى أن وصلت إلى هذه المعركة الحامية.

يقول الدكتور أن كهلاً كان يلازمه وهو يخيط أو يضمد جراح أربعة شبان أخوة. وكان الطبيب قد وجدهم معاً في الممر متكتلين متزاحمين وكأنهم يرغبون بإشغال أقل حيز من المكان. وما إن بدأ الطبيب بالتخفيف عليهم وممازحتهم على الرغم من الوضع؛ حتى تفرفدوا وأظهروا أريحية وروح مزاح ساخرة حول ما حصل. بل إنهم أبدوا ندماً على المشاركة ليس من باب الخوف كما كانوا يكررون وإنما بسبب هذه الدماء من أجل خلاف تافه. وكان الكهل، الذي تبيّن أنه أبوهم، يحوم حولهم ويضغط على راسه ويكرر كمن يهذي "أنا صوابي براسي يا ابن أخوي."

يقول الدكتور أنه ما كان ليلوم الكهل، فالوضع ليس بالهين، ومن الطبيعي أن يعبر ويهذي بأن "صوابه براسه". ومعلوم أن هذا التعبير "صوابي براسي" يعني في مناطق كثيرة من سورية بأن المصيبة كبيرة، وأن تأثير المصيبة على المرء كمن ضرب ضربة قوية على رأسه.

مع الوقت بدأ الطبيب يتضايق من هذيان الكهل وترداده "أنا صوابي براسي يا ابن أخوي"، وصار ينهره ويطلب منه الابتعاد قليلاً كي يقوم بعمله. لكن الكهل ظل على إلحاحه وعلى الوقوف إلى جانب الدكتور مع اسطوانته الشغالة "أنا صوابي براسي يا ابن أخوي". يقول الدكتور في لحظة من الضيق والغضب نفضت يدي في وجهة الكهل وصرخت "كل الناس مصابة براسها يا حجي". يقول الدكتور انتثر دمٌ من كفوف الجراحة على وجهه، وأحسست فوراً بندم على تصرفي. مسح الكهل وجهه. وتلع برأسه ودفع به نحوي إلى درجة أن رأسه صار في حضني وهو يقول "أنا صوابي براسي يا ابن أخوي... هون شوف هون". كان يشير إلى نقطة في قمة رأسه حيث سال دم على شعره وتجمد متكتلاً هناك.

يقول الدكتور عندها عرفت أنه مصاب فعلاً وأن تحت الدم الجامد المتلبد مع شعره جرحاً. يقول نظّفتُ الجرح ونظّرته كما نقول طبيّاً. فما الذي وجدته؟ احزرْ. وجدت ثقباً في الجمجمة. كان واضحاً أن الفتحة هي فوهة دخول رصاصة، وكانت الرصاصة تلتمع صفراء في عمق الجرح تحت الضوء الساطع.

انتشر الخبر بسرعة والتمّ أطباء حولنا وراحوا كل بدوره يتفقد جرح الرجل الكهل. غرف العمليات جميعها مشغولة؟ فما العمل؟. كنا فعلاً وكأننا في جلسة استشارة ميدانية. قرّ القرار بأن نخاطر ونخرج الرصاصة ويبقى الرجل تحت المراقبة اللصيقة ريثما تفرغ غرفة عمليات. حضّرنا كل شيء في الممر، واستخرجتُ أنا الرصاصة بكل سهولة ويسر، ولم يتبع استخراجها أيما نزف.

ظل الرجل تحت المتابعة ساعة، ساعتين، الليلة الأولى، ويوم ويومين وثلاثة ولم يحصل له شيء، لا نزفاً، ولا فقد وعياً، ولا اضطرب كلامه، ولا انشل له عضو، فضلاً على أنه لم يمت... لقد نجا وما زال حيّاً إلى الآن.

من أين جاءت الرصاصة؟ وكيف أنها لم تُحدث عقابيل؟

لا تفسير سوى أن الرصاصة سقطت سقوطاً حراً بعد أن بلغت مداها في العلوّ بعد إطلاقها بطريقة عرائسية أو تخويفية، وبالمصادفة كان سقوطها على رأس الكهل، وأنها بعد أن اخترقت الجلد وعظم الجمجة فقدت قوة اندفاعها فاستقرت على الغلاف المسمى طبياً بالأم الجافية، وهو غشاء لا أوعية دموية كثيرة فيه. لو أن الطلقة تجاوزت الأم الجافية وأصابت الأم الحنون أي الغشاء الداخلي المغلف للدماغ مباشرة وهو كثير الأوعية الدموية، لحدث نزف كثير وغام وعي الكهل ثم فقده... ثم يموت إن لم يجري تداخل سريع جداً.

لقد نجا الكهل، نجا بمعجزة وكتب له عمر جديد.

بول حافظ أسد

والله ما عاد أذكر أي عام. بس يمكن بعد تفجير الأزبكية. استنفرت أجهزة الأمن والبعث والشبيبة وجمعوا البشر من كل حدب وصوب من أجل مسيرة ضخمة في دمشق. وكان الهدف منها إظهار كم يحب الناسُ حافظ أسد. حتى من أبعد قرية من قرى الشوايا أُمر البعض أن يعرّت بالبكآب من الخلف ويسافر من 5-6 ساعات إلى دمشق للحضور. البعض بدأ سفره الساعة الثناية عشر ليلاً قبل المسيرة ولم ينم لليوم الثاني نتيجة للسفرة المتعبة والاستثارة في المشاركة العظيمة. ابتدأت المسيرة الساعة التاسعة صباحاً وحتى الثامنة مساء. وكانت قد نصبت منصة عليها يقف "القواد" ومنهم حافظ أسد. 11 ساعة كان حافظ أسد لا يمل من التحية بيديه للجماهير المارة ولم يتزحزح من مكانه. 11 ساعة غاب خلالها بالدور كل الحاضرين من القواد وعادوا بعد أن بالوا وتغوطوا وربما أكلوا لقمة.

إلا هو فقد ظل صامداً. والسؤال ألا يحصره البول؟

قالت وزيرة الخارجية الأسبق "مادلين اولبرايت" أن حافظ أسد استقبلها لمناقشة التسوية مع اسرائيل، وطالت المقبلة أربع ساعات من الثرثرة والتعهدات من قبله لضمان حكمه، وكان يضيفها الشاي والبابونج وعصير التوت. هي تشرب وهو لا يمس كأسه. واضطرت هي أن تطلب السماح بأن تتبول وتستعير مرحاضه إلى جنب القاعة، بينما بقي هو جالساً ذات الجلسة، متشبثاً بالكرسي متصنّماً. مما اضطر "اولبرايت" أن تسمي هذا التصرف باستراتيجية التبول التي يستخدمها حافظ أسد.

أذكر الأحاديث بعد تلك المسيرة عن صبر وقدرة حافظ أسد وأنه قائد عظيم لا يتكرر حتى من أجل التبول لم يغادر. صبور، رجل ولا كل الرجال. طبعاً لم يخطر على ربعنا أنه مريض نفسياً مهووس بالسلطة والكرسي، ومهووس بأن يرى الآخرين يدركون أنه يضبط نفسه المريضة.

يعني كان بول حافظ أسد مقياساً لقدرته القيادية.

أثاري العرص وكالعادة يغش مثلما كان يغش في فحوص المدرسة، كان يلبس حفاظ ويحرم نفسه قبل ساعات من الشرب. وإذا ما انحصر فإنه يبول في حفاظه ولن تكون كمية البول كبيرة.

ومع ذلك رأى الجزء الأكبرمن إخوانّا العلويين وجهه في القمر، ورأي الجزء الأكبر من السنة حلماً موحّداً أنه في الجنة يشفع لهم إلى جنب محمد.

وكثير من محبيه كان يهمس خوفاً من التفسير الخاطئ والتقرير الأعمى أن ليست فقط يده حديدية وإنما مثانته أيضا حديدية

اغتصاب في تل أبيض

كنا ثلاثة أطباء في مدينة تل أبيض وقتها. أنا بالأصل من المدينة، أمّا الطبيبان الآخران فكانا من حلب. يسافر الطبيبان الآخران في الأعياد والعطل النادرة إلى أهلهما، وأبقى أنا وحيداً. وإذا سألتوني مستغربين ما الذي يجعلني أكره في أن أكون وحيداً وأجني مالاً أكثر، فإنه بالضبط التكليف الإجباري في أن أكون طبيباً شرعياً نيابة، ريثما يرجع الطبيب الشرعي الأصلي من إجازته.

في يوم من تلك الأيام اللعينة التي أكون فيها طبيباً شرعياً حضر شرطي وبرفقته رجل بدوي وابنه. طلب مني الشرطي أن أفحص الولد وأقرر فيما إذا تعرض الولد للواطة. فحصته وكتبت تقريري الجازم الواضح. ملخص التقرير هو: أنه يوجد شق في الشرج عند الساعة الثالثة، مما يعني على الأرجح أنه حصل اغتصاب للولد أو أن عنفاً قد جرى بأداة غير حادة ما أدى إلى هذا الشق. سلمت التقرير للشرطي معتبراً أن مهمتي انتهت، وأن القضية في عهدة الشرطة.

بعد أشهر كنّا أنا وقاضي المدينة وبعض الأصدقاء في دعوة على غداء، ورويت الحادثة. لا حظت عندها أن القاضي أبدى انزعاجاً لا يظهر عليه عادة، فهو أهلس أملس. قال: لم أبلغ أبداً عن حادثة من هذا النوع وأنت يا طبيب مسؤول. قاضينا "علوي" من دم سرخو في اللاذقية. في أيام قادمات سأفهم أن اللواطة كفرية الكفريات لدى إخوتنا العلويين؛ إن لم يكن قاضينا قد بالغ بالأمر. اتخذ القاضي من الحدث قضيّته، بل وعمل منها قضية القضايا، فهو بحاجة إليها كي يظهر كم هو مشغول بالحفظ على القانون والقيم والأخلاق لأنه مثل كثيرين غيره كان مهتماً بجمع المال. وهل من قضية يغسل فيها يديه أفضل من هكذا قضية؟

يا إلهي... وكما يقول المثل "وقعت وما حدا سمّى عليّ". أبلغني القاضي رسمياً أنه يريد اسم الشرطي، وأبلغ مدير المنطقة كذلك، وكبر الأمر. كنت أسجل مثل هكذا حالات في دفتر خاص، وقد سجلت فعلاً في صفحة يوم 1978/7/23 بضعة كلمات منها اسم الطفل الكامل وملخص عن تقريري ولكن مع الأسف دون اسم الشرطي. لم يخطر ببالي تسجيله، ربما لأنه باللاوعي كان ساكناً لدي الإيمان بأن الشرطة تحافظ على الأمن.

مرة قال القاضي: والله لأسجنك وأسجن مدير الناحية إن لم تنحل القضية. كان من واجبك يادكتور أن تبلغني وتبلغ مدير المنطقة بطريقة منفصلة.

أخذ القاضي اسم الولد مني ووصل إلى الولد وأبيه، وعلم من الأب أنه جرت صلحة مع الفاعل على أن يهجر المغتصب البلد، وفعلاً فقد هرب الفاعل بعاره إلى "قطر" حيث يعمل أخوه. ولكن لا الأب ولا أحداً ممن حوله يعرفون اسم الشرطي. وإنما عندها عرفنا أن الشرطي من مخفر ناحية "سلوك" التابعة لتل أبيض وليس من شرطة تل

أبيض. تحلحلت القصة قليلاً. وجلسنا أنا والقاضي ومدير الناحية في جلسة تفاهم وصلح غريبة قليلاً عليّ، وطلعنا باستنتاج أن البحث عن الشرطي بات سهلاً وأن على مدير ناحية سلوك أن يجده. أيام أخرى ونعلم أن كل طبخة الصلح طبخت في مخفر سلوك، حيث تآمر الشرطة هناك بعد وساطات وضغوط عشائرية في إخفاء التقرير أو تمزيقه على أن يدفع الفاعل وأهله رقماً كبيراً من المال للمخفر ولأهل الولد. وإمعاناً في التمويه نُقل الشرطي المرافق إلى أقصى مخفر على الحدود العراقية السورية.

لم تنته القضية هنا أبداً. ولديّ أنا الغشيم الأهبل كل الأسباب لأني أشك بأن مدير منطقة تل أبيض والقاضي استثمرا الأمر وحصلا على مال ومال، وان طاقة قدْر انفتحت أمامهما. أظن أنّ حتى رئيس مخفر سلوك وشرطته دفعوا كي يتجنبوا العقوبات... وأنني أنا شخصياً كنت ضمن الاستثمارة واحتمالات الدفع، لولا أنني لم أكن أعرف أنني مستهدف وأنني تصرفت على سجيّتها، و أنني كنت محض أداة بلا إرادة منّي. كم كنت شاوياً ساذجاً وكم كانوا لؤما !

يا إلهي كم أكره الطبابة الشرعية!

وبالمناسبة كان اسم تل أبيض لدى كثير من موظفينا الآتين من مدن أخرى هو: الكويت.

تشخيص راجع

لم أعد أذكر في أي عام من أعوام الثمانينيات عُقد مؤتمر نقابة أطباء سورية في اللاذقية. حضر عبد السلام كضيف شرف. وأعطيت له الكلمة بعد أن أعتلى المنبر فرسان النقابة السياسيون المداحون الذين نزعوا منّا مزاج الإقبال وتوقع الفائدة. وكانت القاعة في فندق الشاطيء الأزرق تغص وتبلع ليس فقط بوفود الأطباء، وإنما أيضا بطاقم السياسيين اللاذقانيين المستعدين للولائم والمناسبات كما هي العادة في كل محافظة.

قال متهكماً: اليوم سأعرض عليكم اكتشافي الذي أزعم أنه قيّم ومهم. أسمي هذا الاكتشاف بالتشخيص التاريخي الراجع. من خلال تطبيقه يمكننا أن نشخّص مرض الشخصية التاريخية الفلانية أو سبب موتها. دعونا نطبق نظريتي على الخليفة الأموي معاوية ابن أبي سفيان. المعلومات التالية استسقيتها من مراجع عدة. كان معاوية في شبابه وسيماً، كما إنه كان "أطرق" وهي مفردة تعني عند أهل الرقة بأنه طويل نحيف. وكان محباً للطعام الجيد اللذيذ؛ ومن لا يحب لذة الطعام. مع العمر والحكم والطعام الذيذ تقول كتب التراث صار سميناً، بل سميناً جداً حتى أن الخارجي الذي كلف بقتله وهو "البرك بن عبدالله" طعنه وهو ساجد يؤم الصلاة، فما نال خنجره من معاوية مقتلاً لعظم عجيزته. وقد غاص الخنجر الطويل في مؤخرة معاوية عميقاً، ولكنه ما تجاوز كتلة الدهن الثخينة الكبيرة.

وكان معاوية في هذه المرحلة أكولاً بوالاً. يستيقظ مرات ومرات ليبول وليأكل.

ومع الزمن تذكر الكتب أنه صار يذوي وينحف ويتكرمش جلده ويتحزز.

هذه الأعراض والعلامات ما هي إلا أعراض وعلامات الإصابة بالداء السكري. معاوية كان مريضاً بالسكري. وتعضيدا لنظريتي هذه أورد لكم الحادثة التالية التي جاءت في كتاب كذا للمؤلف فلان الفلاني:

جيء بسربة منتقاة من الفتيات السبايا من بلاد البربر. أدخلن عاريات تماماً على معاوية بعد أن عدا عليه الزمن والمرض وصار ضعيفاً نحيفاً. وكان بيده مطرق خيزران من تلك المطارق التي لها في طرفها البعيد دعبولة حشفية المظهر ملساء. وكان من عادته هزّ المطرق والتلهّي به.

انتخبت الفتيات من بين مئات. كن كواعبَ صغيرات أماليد لا شعراً على أبدانهن، بينما نهودهن كنّ يستظلن بشعر الرأس الطويل. كنّ حقاً في منتهى الجمال. وأنتم يا زملائي الأطباء أصبحتم تعرفون وفقاً لمنهجي في

التشخيص التاريخي الراجع أن معاوية كان يعاني من داء السكري المتقدم، وانتم تعرفون ماذا يحصل للمرء المريض بهذا الداء من الناحية الجنسية. أمسى الرجل مثل أي مصاب بالسكري المتقدم عاجزاً لا ينتصب له عضو.

واستعرض معاوية سرب الفتيات واحدة واحدة وهو يتحسر ويتلوع ويمس بحشفة المطرق "هنَّ" كل واحدة منهن ويتأمّل.

حمام استانبول

حمام استانبول يُذكّر الغريبَ بحمام الجامع الأموي. يجلس الغريب في الشمس في مقهى حديقة. تقترب حمامة من قدمي الغريب المريض، تقترب جداً حتى لا يفصلها عنه سوى خفقة قلب. تجفل الحمامة من الخفقان، و تنفر. تقترب و تنفر. تقترب و تنفر مرات و مرات. و الغريب يتذكر ويتذكر حمامات الجامع الأموي المحتل، و يبدأ مشهد الذكرى بالتموّس مثل سراب يختفي. يموت الغريب على كرسيه وتهبط يده مع سيجارته المشتعلة. تفر الحمامة من جديد، و يتطاير رف الحمام من حولها و يستوط في الجو كأنه أحسّ أن روحاً قد حامت و صعدت. ثم... يعود الحمامُ إلى هدوئه و إلى حركته اللائبة تماماً مثل حمام الجامع الأموي المحتل.

"خالي" المصابُ بضخامة البروستات

ليس من صعوبةٍ تُوازي الصعوبة التي يلقاها طبيبٌ متخرجٌ للتوّ، مُمتلئٌ من ناحيةٍ بغرور اللقب "دكتور!" ومن ناحيةٍ أخرى فَزِعُ القلب مثل فرخِ دجاج مبلولٍ تجاه الخطوة العمليّة الأولى التي سيخطوها وحيداً.

لا تصدّقوا أي طبيبٍ ينتفخُ أمامكم وهو يتكلّمُ بكلّ ثقةٍ عن تجربته الأولى، إذْ لو أنكم دقّقتم في نبْرتِهِ وفي الملامح التي سيكتسيها وجهُهُ وهو يتكلّمُ، لأدركتم أن المسكين يُداري بثقتِهِ الحاليّة المكتسبة تلك اللحظاتِ المخيفة التي واجهها لأوّل مرّة، عندما شرعَ في معالجة أوّل مريض.

أنا شخصيّاً لن أنسى تلك اللحظاتِ الحرجةَ حتى لو عشتُ مائة حياة.

كان صباح ثلاثاء أذكرُ تماماً. وكنتُ قد جهّزتُ عيادتي الريفية في بلدة "تل أبيض" شمال سورية. وهي بلدةٌ تقع على الحدّ الفاصلِ بين تركيا وسورية. يفصلُنا عن الأتراك خطّ "قطار الشرق السريع". بالمناسبة هو قطارٌ ليس سريعاً ولا من يحزنون. إنّما هي تسميةٌ تاريخية، أيام كانت القطاراتُ من عجائب الدنيا. عيادتي تقع على بعد أمتارٍ من الخطّ. لاحقاً ستتوضّحُ لكم العلاقةُ بين قطارِ الشرقِ السريعِ والتجربة المريعة التي تعرّضتُ لها مع مريضي الأوّل.

الساعةُ تقتربُ من الثانية ظهراً، وهو ما يعني نهايةَ الدوام الصباحي، دون أنْ يلجَ بابَ العيادة شخصٌ مهما كان، فضلاً عن أنْ يكون مريضاً. لكم أنْ تتصوّروا حالتي بين الرغبةِ في العمل، وبين الخوفِ من العمل. فجأةً طرقَ سمعي صخب رجالٍ ووقْعُ أقدامٍ. دخل العيادةَ بضعةُ رجال يسندون شيخاً يضعُ يديه على أسفلِ بطنه ويولولُ. أذكرُ الاضطرابَ الذي اعتراني، وأنا أقعُ تحت أنظارِ هذا الجمْعِ من الرجال الذين لا بدّ وأنّهم يتوقّعون منّي أن أُخلّص مريضهم من الألم. وما كان المريض إلا أحدُ "أخوالي!". خالٌ من طرف العشيرة التي تنحدر منها أمّي. أنتم تدرون أن أبناء المنطقة القبليّة يسمّون كل أقرباء الأمّ بالأخوال!

تمدّد "خالي!" على سرير المعاينة، وتلفّظ بما زاد في إحراجي.

قال بين تأوّهاته: ألست ابن فلان؟ قلتُ: بلى. قال: أتعرف أنني خالك؟ قلتُ: أهلاً يا خالْ. قال: ذهبنا إلى "محمد علي" ولم نجدْهُ فأتينا إلى ابن أُختنا!

"محمد علي" هذا هو الطبيبُ الأقدم في البلدة بين ثلاثة أطباء.

ليستْ نغمةُ السخريةِ وحدها هي التي جعلتْني أزدادُ اضطراباً، وإنّما تلك الاستهانة. إذْ اعتبرني تلميحاً أنني بلا خبرة، وأنّه اتّكل على الله وأتاني لعلّي أكون نافعاً.

أحسستُ بمزيجٍ من الخجل والحَنَقِ، وبشيءٍ من الشعورِ بالنقص والتهيّب. وزاد "خالي!" الطين بلّةً عندما أجابني على سؤالي عمّا به بالقول: ألستَ طبيباً؟ افحصْ وسترى. فحصتُه فحصاً تقليدياً من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه، الأمر الذي لم يكن معتاداً عليه عند الدكتور "محمد علي" فقدْ رحتُ ألتقطُ علامات عدم الرضا من ملامحه التي تكادُ تنطقُ: ماذا تفعلُ؟ الألم هنا فلماذا تبحثُ بعيداً؟ وبين لحظةٍ وأخرى كان يتناول يدي ويضعُها على موضع الألم ويضغط: هنا. هنا.

أخيراً قررتُ لفظَ تشخيصِ المرض بعد صراع مع النفس "ماذا لو كنتُ مُخطئاً؟" قلتُ: معك ضخامةُ بروستات، يعني "أبو فريوة". أجاب بصوتٍ بارد: أعرفُ أنّي مريضٌ بأبو فريوة. "محمد علي" قال لي قبلك. المهمّ أن تخلّصني من الألم.

كان عليّ أن أقوم بإدخال "قثطرة" في إحليل "الخال!" المريضِ لأُفرّغ كميّةَ البول المختنقة في مثانته المقبّبة مثل كُرة. لكنّني لم أقمْ بقثطرة من قبلُ، ولا مرة واحدة في سنوات الدراسة! شاهدت ودرستُ لكنني لم أجربْ.

جلبْتُ "القثطرة" ودهنت رأسها "بالغليسيرين" كيْ تصبح زلقةً وأدخلتُها في إحليله. كلّ هذا يمكنُ اكتسابَهُ نظرياً. إنّما المشكلةُ تكمنُ في تجاوز "مُعصرّة" المثانة، تلك العضلة التي تسترخي أثناء التبول، ولا بد أنها عندي "خالي" الآن مُنْضغطةٌ ومتشنّجة. محاولةٌ، اثنتان، ثلاثة... والقثطرة اللعينة تأبى الدخولَ عبر "المعصرّة"، وقطار الشرق السريع يُطلق بوقَه ويرجّ الأرض رجّاً. وفي لحظة ربّانية اجتاز أنبوبُ القثطرة المعصرّةَ ودفقَ بولُ "خالي" تحت الضغط خارجاً عن الإناء الذي وضعتُه أسفل نهاية الأنبوب ليلوّث ثيابي. البول يتدفق ويتدفق زمناً ثم يبدأ بالتناقص، ثم ينقط، وأخيراً ينقطع تماماً عندما توقّف بوقُ قطارِ الشرق السريع وسمعنا صوتَ مكابحه يتطاولُ ثم ينتهي... كان عضو "خالي" المرتخي مازال بين أصابعي وأنا أنظر إلى ملامح وجهه وقد شرعت علاماتُ الراحة ترتسم فيه.

قلت فخوراً بصنيعي: "ها خال ارتحت؟ شلون شفت شغل ابن أختك"

قال خالي "يعطيك العافية. بك خير. ريحتني الله يريحك ويعلّي مراتبك وياخذ بأيدك وتصير مثل الدكتور محمد علي"

خِشيةُ المرض المَرضيّة

الناسُ يخشون المرضَ. هذا أمرٌ طبيعيٌ ضمن حدودٍ طبيعيّة.

من الأمور الطريفةِ التي لا يستطيع طبيبٌ نكرانَها، تلك اللحظات الأولى التي يلتقي فيها بالمادّة الدراسيّة "أعراضُ الأمراض" في سنته الدراسيّة الثانية أو الثالثة. إذْ ما إنْ يقرأ أنّ أهمّ عرضٍ لارتفاع الضغط هو الصداع، حتّى يهرعَ إلى قياس ضغطه، فهو يشعر بالصداع بين حينٍ وآخر، جاهلاً أنّ للصُداعِ أسبابٌ كثيرةٌ، منها سهرُه ليلة البارحة وإرهاقُه لنفسه بالقراءة والتفكير. وما إنْ يقرأ أن اليرقان "أبو صفار" يُلوّن البول بالأصفر الغامق، حتّى يهرعَ إلى تحليل دمه كي يختبرَ وظائفَ الكبد، جاهلاً أنّه مادام قد بلع حبّة فيتامين، فإنّ الفيتامين يلوّنُ البولَ وهو لا يدري...

دعوني أحدّثكم عن أوّلِ رعبٍ في هذا المجال عطّل عقلي وقُدرتي على التمييز .

ذات يومٍ، وأنا أقرأ في الشرفةِ في كتاب "الأعراض والتشخيص"، قرأتُ أنّ سرطانَ الشّفة يتظاهرُ أوّل ما يتظاهر بحبّةٍ صغيرة على الشفة السفلى تكبرُ وتكبرُ. تتوضّعُ تلك الحبّة تماماً على الحدّ الفاصل بين الجلد و "الغشاء المخاطي للفم"، وغالباً في ذلك الموضع الذي اعتاد المدخّنُ أنْ يُطبقُهُ على السيجارة أو السيجار. كنتُ آنذاك أدخّنُ. لعنةُ الله على التدخين وعلى الذي اخترعه .

انْظروا كلّ المواصفات مطابقة! أن أيضاً ومنذ شهرٍ لديّ حبةٌ في الموقع الذي اعْتدتُ أنْ أطبقَ به على السيجارة، تماماً على الحدّ الفاصل بين الغشاء المخاطي والجلد... أذكرُ إنني أعدتُ القراءةَ مرة بعد مرّة، وفي كل مرّةٍ ينطبقُ الوصفُ عليّ. أحسستُ برعبٍ قاتل. ضعتُ. وشرع قلبي يخفقُ خفقاتٍ تكاد تقفزُ خارجةً من صدري. حتّى شربةُ الماء غَصصتُ بها. يا إلهي مازلتُ شاباً صغيراً! ماذا أفعلُ؟ قذفتُ علبةَ الدخان بعد أن مزّقتُها، ورحتُ أذرعُ الشرفةَ ذهاباً وإيّابا. وأخيراً اهتديتُ إلى أنّني يجبُ أنْ أعرضَ نفسي على أستاذ "الأمراض الجلدية". لكنّ الليلةَ التي أمضيتُها ساهراً والساعة التي مرتْ بالانتظار في العيادة كانتا نوعاً من عذابٍ لا يُطاق، وكنتُ أشفقُ على نفسي من تلك اللحظة التي ستفترّ فيها شفتا أستاذي وهو يلفظُ: "علينا استئصال الورم سريعاً."

وعندما فحص الحبّةَ تضاحك قائلاً، وقد أدرك الرعبَ الذي كان مُستولياً عليّ من ارْتعادِ صوتي:

. ماذا ظننتَ؟ باطلْ على أطبّاء المستقبل!.. هه... انظرْ هذا تقرّن دهني... إنه لا شيء... نعمل به هكذا...

وأزاله بظفره...أي والله بظفره أزاله.

كأني لحظتها ولدتُ من جديد ...

أين كنتُ وأين أصبحتُ؟

سردينات المساعدات

في غابر الأيام. وقد أفقرت السلطاتُ الناس، وصلت مساعدات لا أدري من أين. أظنها من الأمم المتحدة. كان من بين المساعدات رز وشاي وكميات ضخمة من علب السردين. كنت في الأول الإعدادي في ثانوية الرشيد وقتها. وكان أن اكتشفت حالات تسمم نتيجة لتناول السردين، فقررت شرطة البلدية، وقد كان للبلدية شرطة، أن تجمع علب السردين من الدكاكين ومن الجمعية العسكرية وجميعية التوفير إذا لم تكن ذاكرتي تتوهم.

كنا وقتها أبناء الأحياء الطرفية نلعب علي سور المدينة وفي واديها، أو نتجول في البرية القريبة من المدينة ناحية جورة السوس، وناحية موقع معمل السكر ومحطة الأبقار فيما بعد. كل هذه الأماكن كانت برّاً قفراً قبل أن تزحف المدينة.

في يوم من الأيام أواخر الربيع والشمس باتت تصقع. شمس الرقة لا ترحم. وكان الشعير وقتها قد نضج والورود وأنواع النبت الأخرى قد صوحت، وأعشاش العصافير والمريعي والقطا منتشرة في الحقول وهي هدفنا. هدف التخريب واللعب بالجلاعيط. كنا في سباق نحن والأفاعي في البحث عن بيوض الطيور وفراخها. كانت الرقة فقيرة بالأشجار ولذلك كانت عصافيرنا تبني أعشاشها تحت أجمة من الشوك أو القندريس...

كم من عصفورة قتلت نفسها حرقة وهي ترانا نخرب عشها ونلعب بفراخها. أذكر مرة عصفورة شجاعة كانت تهاجمنا وتزقزق بقهر وتحلق حولنا في دوائر لفترة غير قصيرة إلى أن فرغت قواها وسقطت ميتة.

في ذاك اليوم وما إن هبطنا من الهضبة حتى رأينا حقل الشعير الذي قصدناه يتلألأ في الشمس. فيه أشياء تتلامع. اكتشفنا سريعا ما الأمر. كانت هناك على كتف الوادي وفي بطنه كمية هائلة من علب السردين منثورة على مساحة واسعة. إلى حد الآن لم أدرك لـمَ قامت بلديتنا بنثر علب السردين على كل تلك المساحة! لـمَ لمْ تكومها مثلاً؟ لـمَ لمْ تدفنها؟

وكان أن وجدنا تسليتنا بعد أن انفجرت مصادفة إحدى علب السردين نتيجة للحرارة وطرطشت علينا.

رحنا نمسك بالسردينة المنتفخة، مما يدل على أن غاز التعفن قد بدأ يضغط من الداخل، ونقذفها على جلاميد الحصى الفراتي فتنفجر. نبحث ونبحث عن العلب المنتفخة التي أسميناه بالحوامل ونفجرها. كنتَ تسمع الواحد منّا هذه "حامل"... دي وتنفجر. هذه "حامل" وتنفجر.

فتح "محمود" إحدى العلب. لم تكن العلبة حاملاً. قال: هذه مو خربانه والله أعلم. جميعنا نعرف أن محمود مغامر ومتهور .

كلنا صحنا به: أوعَ.

ولكنه بدأ يأكل منها وهو يتلمظ ليغرينا. ويردد متلذّذا مو خربانه مو خربانه أمممممممممممممم.

كان "محمود" سيموت بالتأكيد لولا أن مصلحة الحصادات كانت قريبة منّا. دقائق قليلة وامتقع لون "محمود" وراح يتقيّأ، ويفلت اسهالاً سيبقى عاراً عليه حتى أنه لم يَعُد إلى الشلة لم نعد نراه إلا لماماً، وعندما كبر قليلاً سافر إلى الخليج، إلى أخواله، ولم يعد.

رآنا عمال المصلحة نحمله ونصيح. ظنوا أن أفعى لدغته، فجاءنا البيك آب مثل الرصاصة، وعندما رأى السائق أن الإسهال والإقياء يلوث ثياب محمود، تردد قليلاً. ولكن الرجل الذي كان بجوار السائق حمل محمود غير آبه بتلوث ثيابه وصرخ بالسائق: يا الله بسرعة لا تاكلْ هوا العما يضربك.

"محمود" صار موظفاً مهماً في بنك سعودي كما سمعنا، ولكنه لم يعد إلى الرقة أبداً.

عمليّةٌ قيْصريّة في غرفة الغسيل

كثيراً ما نسمعُ من هناك من الغرب أنّ طبيباً أو طاقماً من الأطباء يحاكمُ أو يُحاكمون بسبب خطأ طبيّ. الخطأ بالطبع ليس مقصوداً وإنما يندرجُ عادة تحت باب الإهمال أو التقصير، لكنّه على أي حالٍ خطأٌ أدّى إلى ضررٍ واستحقّ أن تقوم على أساسه دعوى.

هناك الطبيبُ والمريضُ مؤمّنان على الأقلّ في الحدود الدنيا، لذا يتمترسُ كلاهما خلف القانون، كيْ لا يخسر ما يخسره المرءُ عندنا في ظلّ أعرافِ تبويس اللحى والتنازل عن الحقّ خجلاً واستحياءً من الضغوط التي يلجأُ إليها المعارفُ.

بعضُ الأخطاء قاتلٌ. بعضها فيه ضررٌ. وبعضها طفيفٌ يشبه الطرفة لا ضرر فيه سوى ما قدْ يُلحقُه بسُمعةِ الطبيب، وسوى الألم النفسيّ الذي يتعرض له المريض والطبيب.

أحدُ زملائي من أطبّاء النسائية تعرّض ذات يومٍ إلى حالةٍ من تلك الحالات. إذْ زارتْه في عيادته امرأةٌ في المخاض، لعلمها أنّ في العيادة غرفة ولادة. كانت الولادةُ "خروساً" في سنّ الخامسة والثلاثين. والخروس هي منْ لم تلد من قبلُ. ملأ صراخُها العيادةَ، مما اضطرّهُ على استثنائها من الدور. ولما فحصها قرّر على الفور أنها تحتاج لعملية قيصريّة عاجلة لاستخراج الجنين. لم يتردّدْ في القرار أبداً، لأن المرأةَ ليستْ شابة، وهي خروسٌ، وواضحٌ أنّها ووالد الوليد المنتظر يتحرّقان في انتظار مجيء الوليد. فقد كان الوالدُ المسنّ هو أيضاً يفركُ يديه بنفاذ صبرٍ وهو يهمهمُ بالدعاء ويرفعُ عينيه بين لحظةٍ وأخرى إلى السماء عبر السقف. لا مناص. عملية قيصرية.

على عجلٍ هتف الطبيبُ للمشفى الخاصّ، طالباً تحضير غرفة العمليات... يقولُ زميلي: "لا أدري كيف جرتِ الأمورُ... اعتقدتُ أنّني أقومُ بواجبي دون خلَلٍ. أذكرُ أنّني ودّعتُ الولادةَ وزوجها على باب العيادة وأنا أقول بصوتٍ عالٍ كما لو أن الله أراد أنْ يفضحني: دقائق وأكونُ في المستشفى. ونصف ساعة أخرى ويكونُ ابنك بين يديك... حتّى أنني سمعتُ بعضَ النساء في الردهة يبتهلنَ إلى الله ويطلبن أن يخلّصها ويرزقَها بالولد على يديّ... تلك الدعوات الحارّة التي تعودنا عليها نحن أطباءَ النسائيّة، والتي نقدّرها حقّ قدرها، فنحن نعلمُ ربما أكثرُ من غيرنا معنى أنْ تتألّمَ الولادةُ وأن يتأخر مجيء الولد، فضلاً عن الرغبة العارمة للمرأة في أن تصبح أمّاً بعد طول انتظار"

في دقائق معدوداتٍ كان طاقم غرفة العمليّات بانتظار الولادة والطبيب. حضرتِ الولادةُ أولاً وهي تصرخُ بملء فِيها دون أن يصدّقلُها أحدٌ: "سألد... ياناس سألد"

في الممرّ الطويل حيث تجلسُ الزائراتُ، وحيث أفراد الطاقم الطبيّ يجيئون ويذهبون، استرعى الانتباهَ تغيّر صوتِ المرأة الولادة المداهم بالألم الحادّ، وأحسّوا أن أمراً ما يحدثُ بالفعل. وقبل الوصول إلى جناح العمليات أَلْهَمَ اللهُ الممرّضةَ التي تدفعُ سريرَ النّقل، أنْ تنزاحَ عن الممرّ وتدخلَ غرفة الغسيل المفتوحة، بينما كانت المرأةُ الولادة تدفعُ آخرَ قوّتها إلى أسفل بطنها وتصرخُ من بين أسنانِها: "إنه يخرج... يا ناس إنه يخرج"

ثوانٍ وإذا بصراخ الوليد يملأ الممرّ، ويُلفتُ أعناقَ الجميع. ثوانٍ أخرى ويحضرُ زميلي مهيأً نفسه للجراحة! فيجدُ لوماً واتّهاماً في عيون الجميع يقولُ سرّاً ما لا يُقال علناً: ألهذا الحدّ النقود غالية على قلبِك يادكتور؟ كيف ترسلُ امرأةً في المخاض إلى عملية قيصرية، فتلدُ حتى قبل أن تلجَ بابَ غرفة العمليات؟

... ساعتها. يقول زميلي: ساعتها ارتسمتْ أمام عيني العبارةُ الذهبيّةُ التي كثيراً ما قرأناها في كتب التوليد. العبارةُ التي تكثّفُ تجربةَ البشريّة في ما يخصّ سلوكَ الطبيب أثناء الولادة: "الانتظارُ والمراقبة" فما الولادة إلا جزءاً من طبيعة البشر. ويا ليتني فعلتُ!

المرة الثالثة

إنها المرة الثالثة. وهل ينجو أحدٌ من الثالثة؟

كان كل شيء يهتز في سيارة الإسعاف التي ليس فيها إسعاف سوى بوقها الصارخ. حمّالة المرضى ترقص. قناع ضخ الأوكسجين يرقص. عضائد صندوق السيارة التي كانت مغطاة في يوم من الأيام وصارت الآن عارية؛ هي الأخرى تتراقص. رؤوس وأيدي المسعفين تتراقص. كل شيء يتراقص.

كانت تنظر إليه متعرقاً غائباً عن الوعي وتتساءل إنْ كانت هذه لحظاته الأخيرة في الحياة. الغريب أنها و في لحظات مثل هذه ضبطت نفسها وهي تفكر "لماذا اختارته هو بالذات من بين شبان المدينة؟". في سنوات مراهقتها وبدء نضجها لم تبق عينُ شابٍ في المدينة لم تمسح بنهم جسمها مرات ومرات، ولم يكن هناك من شاب لم يشغف ويحلم بها. هي متأكدة وواثقة من أن جمالها الأخاذ لا يترك حيّزاً للشبان دون تمنّيها. "لماذا اختارته هو بالذات من بين كل الشبان؟". بالطبع أحبته وتحبه وانتقته هو لا غيره؛ تقول لنفسها ما إن تضبط نفسها وهي تقارن بين أن تكون محط الأنظار كلها وبين أن تصبح لواحد واحد فقط. ما الذي ميزه عن ذوي القربى من أبناء العم والعمات وأبناء الأخوال والخالات ومن جموع الشبان في الحارة وفي البلدة؟ ما الذي جعلها تقع ولم تعد ترى غيره؟

كثيرا ما فكرت أنه أسرها مثلما تؤسر حمامة.

تذكر أنها في طريق عودتها من المدرسة مرت إلى شقة أختها. لم تجد أحدا في الشقة. وقفت هناك تتأمل المطر الغزير من فتحات الدرج، وترى شرفات الشقق المقابلة من خلال غلالة المطر وكأنها في ضباب كثيف، وتسلي نفسها بالنظر إلى المياه المتدفقة على إسفلت الشارع في الأسفل. وكان هو يحوص. ينزل ويصعد الدرج مرات ومرات. هي تعلم أن شقة أهله في الطابق الرابع من البناية. نزل وصعد. نزل وصعد، بينما كانت هي تنتظر أن تأتي أختها أو زوج أختها أو يخف المطر. فجأة اقترب منها وقال بلا مقدمات:

- كلهم يريدونك. لكن أنا أحبك... وأريدك لي وحدي.

كانت رائحة عطره فائحة وقوية وبكل تأكيد كان في كل صعود يبخ بخّة من العطر. كان كمن يسير في غيمة من عطر.

لا بد وأن المفاجأة والارتباك وأفكارها المراهقة السابقة عنه واقترابه الجسدي منها جميعاً جعلتها تحس بدوخة. بادر هو بإسنادها و مساعدتها على الجلوس على درجة وكلا ذراعيه تحوطانها برقة ورعاية وبغتة قبلها على جانب عنقها تحت شعرها. وامتلأ شمها وإلى الأبد براحة عطره. قال مرتعباً:

- لا تواخذيني تجاوزت حدي... سامحيني. لكني أحبك أحبك أحبك.

ومن أسفل الدرج صعدت خطوات، فكان لا بد له أن "يهرب". رفع رأسها بإبهامه وسبابته من تحت ذقنها ونظر تلك النظرة، ثم ارتقى الدرجات بخفة ودون أن يصدر عنه أي وقع أقدام.

لم يستطع أحد من الأطباء أو العاملين في العناية المشددة منعها من الدخول، فهم يعرفونها ويتذكرونها ويعرفون تصميمها. إنها المرأة الجميلة الشهيرة المحترمة والتي كثيراً ما قالوا عنها إنها بألف رجل .

كل شيء أعد، وربطت الأجهزة... وشرع مخطط القلب بالشغل. بعد دقائق وفي لحظة رهيبة انقطع نفسه، وتحولت موجات المخطط إلى خط مستقيم. سرت حركة مرتبكة سريعة. وبقيت هي ترتعش وتقبض بكف على كف كي لا يظهر ارتجافها.

ثوانٍ ويقوم الطبيب بالصدمة الكهربائية الأولى عبر المقبضين. لا استجابة وخط التخطيط بقي مستقيماً. الصدمة الثانية و يشرع التخطيط مرة أخرى باستعادة موجاته. ويفتح هو عينيه ويقول:

- نمت شوي مووووو؟

برقت عيناها. وانحنت هي فوقه مبتسمة. وقبلته على عنقه على نقطة تطابق قبلته على عنقها قبل ثمان وأربعين سنة، وامتلأ شمُّها برائحة عطره الذي لم يغيره أبداً.

مصريان وحاسة الشم

دخلت المدرسة الابتدائية في عهد الوحدة المصرية السورية للعام الدراسي 1958-1959 بعمر خمس سنوات. نعم خمس سنوات نتيجة لإلحاح والدي الذي كان يريدني أن أصبح مدير ناحية.

وكان الأستاذ المصري الوحيد حشاشاً عنيفاً، ومسبة "يا ابن الجزمة" لا ترتمي من فمه. وما إن عرفت بعد أيام؛ أن الكلمة التي يلفظها هو بالجيم المصرية "الجزمة" هي هي "الجزمة" بالجيم المعطشة التي نلفظها نحن، حتى سكنت رائحة جزمنا البلاستيكية ذات الساق الطويلة خياشيمى ولم تغادرها إلا بعد سنين وسنين. ولكن والحق يقال أنه كان نشيطاً جداً ويعلم الصفوف جميعاً باقتدار. وكان يجبرنا على خلع جزمنا على الباب على أساس نظافة فتفوح روائح الجوارب.

في كلية الطب وفي دروس التشريح العملية كان أستاذنا أيضاً مصري قبطي قصير عصبي فهيم جداً. وكانت زميلتنا البحرينية تضع عطراً فواحاً قويا، وكانت معي في فئتي وقريبة مني دوماً. أنا بشمّي الفلاحي الشاوي كنت أحسب أن الرائحة الطاغية ما هي إلا رائحة الفورمول المنبعث من الجثث. ولم أكتشف ذلك إلا بعد أن بهدل الأستاذ الزميلة وطلب منها بكل جفاصة أن تختصر من مكياجها الفاقع وأضاف بالحرف: "وكمان لا تسبحي وتتدوشي بالعطر عيب أنت طالبة جامعة مش رايحة شارع محمد علي". من يومها وصاعداً رحت أشم روائح الجثث والفرمول الحقيقي.

لوركا، وفيكتور جارا، وابراهيم قاشوش، وعلي فرزات

أعدم شبّيحةُ الفاشية الأسبانية الشاعرَ "فريدريك غارسيا لوركا". ذهبتْ إلى غير رجعة الفاشيةُ التي أنجبت الدكتاتور "فرانكو" والذي يحفظ عنه شعبه "النكتة" ذات المعنى، والتي تروي لحظات صراعه مع الموت. كان الدكتاتور الفاشي يحتضر، عندما سمع هدير الناس في الشوارع وحول القصر، فسأل أعوانه عن الضجّة. قالوا له إن الشعب قدم ليودّعه. ولأنه دكتاتور أجاب تلك الإجابة الغريبة: إلى أين سيسافر الشعب؟!

ذهبت الفاشية وذهب فرانكو، أما "لوركا" المغدور فيعيش مازال في وجدان شعبه ولا زال صوته يغني للحرية ويتنبّأ:

عرفتُ أنني قتيل

فتّشوا المقاهي

والمقابر،

والكنائس،

فتحوا

البراميل والخزائن.

سرقوا ثلاثة هياكل

عظمية

لينتزعوا أسنانها

الذهبية،

ولم يعثروا عليّ.

ألم يعثروا عليّ؟

لا.

لم يعثروا عليّ!

كنّا طلاباً في الجامعة عندما كتب الشاعر السوري المثنى الشيخ عطية قصيدته "غنِّ الآن فيكتور جارا غنِّ". ففي "التشيلي" تَكثّف قبحُ الشبّيحة الفاشيين في اغتيال "فيكتور جارا"، كما لو أن التاريخ أراد أن يُلخّص القبحَ في صورة.

إثر اغتيال سلفادور اللندي الديمقراطي الاشتراكي الفذ، نظم الناسُ مهرجاناً ثورياً في ساحة ملعب كرة قدم. هناك أدّى الشاعر ومغني الثورة التشيلية "فيكتور جارا" أغاني للثورة وللحرية وللفقراء. كان القهر يمزّق أبناء سنتياغو الذين غصّ بهم الملعب.

غنّى فيكتور جارا وغنى. كانتْ وقفتُه مهيبة أمام الخطر القادم.

قبل ثلاثة سنوات كان "جارا" قد غنى في الملعب نفسه للشعوب مُهنئاً الحزب الاشتراكي بالفوز ديمقراطياً.

وهو الآن في عام 1973 يغني على أعتاب احتضار هذا الانتصار.

كان يغني وعيناه تقطران دمعاً دماً. ووصلت الدبابات

حاصروا الملعب. أغلقوا جميع أبوابه. ثم طلبوا من فيكتور جارا سخرية واستهزاءً أغنيةَ "النصر للبسطاء" التي غنّاها قبل ثلاث سنوات. شرع فيكتور جارا يغني والمسدسات والبنادق فوق رأسه، واستمرّ في غنائها ويداه تتجرّحان من العزف على "الجيتار" من شدّة قهره. وفي نهاية فصل السخرية بتروا يديه وسط القهقهات الشيطانية والصراخ به في أنْ يستمر بالغناء.

وفعلاً بقي يغني. غنى أغنية "المناضل جيفارا" وغنى لابنته "أذكرك أماندا". غنى وغنى إلا أن قرر الشبيحةُ الفاشيون أنْ كفى.

أردوه قتيلاً. وأبادوا الألوف في الملعب، في إحدى أبشع المجازر الدموية.

أمّا عندنا في سوربة، فكم من "مسيح" عُذب عذاباً يهون عنده عذابُ المسيح ذاته! هذا ليس كلاماً ملقى على عواهنه، والسوريون يعرفون ويعلمون. إنهم بالألاف اغتيلوا وأعدموا في الصمت، صمت العالم والإعلام والنّخب.

دخل صوت ابراهيم قاشوش قلوب السوريين، ليس لأنه نطق بكلمات رغبوا بقولها أربعين سنة، بل لأن صوته كان عذباً وسليماً ولا يلثغ لا بحرف الراء ولا السين ولا أي حرف. إنها المقارنة العفوية بين خطابات رئيس لا معنى لها سوى المعنى الذي يصدره فيحيح الأفعى الغاضبة. خطابات لا تقول معنى سوى؛ إنني والمخابرات سنسحقكم وسنحكمكم إلى الأبد. خطابات تتوسّل لغةً بائتة وعفنة وكاذبة ومنافقة ومدعية ومنحطة الأساس الأخلاقي.

على العكس من لغة الغمّ في الخطابات الرئيس البعثية، رقصت دماء السوريين ورفرفت قلوبهم مع اهتزازات حنجرة ابراهيم قاشوش. ولذلك خطفوه وعذبوه وانتزعوا حنجرته وألقوا جثته في العاصي. وعلى عهدة راوٍ يروي أنّ أحدَ الهمج الشبيحة شرب كأس الانتصار وهو يتذوّق حنجرة القاشوش المشويّة ويتلمّظ.

ارحلْ يا بشار

ويا بشار ويا مندس تضرب انت وحزب البعث وروح صلح حرف الإس

ويلا ارحلْ يا بشار

ويا بشار يا كذاب تضرب انت وهالخطاب. الحرية صارت عالباب

ويلا ارحلْ يا بشار

ويا بشار مانكَ منّا خودْ ماهر وارحلْ عنّا وشرعيتك سقطت عنّا

ويلا ارحلْ يا بشار

ما كان علي فرزات آخر مسيح سوري ينزل من صليبيه ولن يكون. الآلاف ينامون الآن على أشواك الصبار في معتقلات النظام السوري. الآلاف طفحتْ بهم المعتقلات، ففاضتْ بهم إلى الملاعب والمدارس حيث يُعذبون ويُهانون.

في صور علي فرزات وفي تفاصيل خطفه وتعذيبه وإهانته رمزيةٌ فاقعةٌ وهمجية. قالوا له وهم يضربونه: " هايْ منشان ما تتطاول على أسيادك... وهايْ منشان ترسم للحرية يا... إلخ". كسروا أنامله، وركّزوا على يديه ورأسه. رأسه... لأنه معمل الأفكار التي انتقلتْ إلى رسومه التي لا يمكن لمن يراها إلا أن يغتبط في إدراكه للفكرة الذكية الناقدة وذات الجذر الأخلاقي الانساني العميق العميق. فهل من نجاح أكثر من هذا؟!

إن رسومه التي تتناول السلطة والفساد لتلعب دوراً سحرياً، ما إن ينظر إليها المرءُ حتى تنحلّ ثياب السلطة من ذاتها، لتبدو السلطةُ عاريةً قبيحة ولا أخلاقية.

وركّزوا على أنامله ويديه لأنهما الأداة الأثمن في جسده لتجسيد أفكار الجَمال إلى الورق، مثلما قطعوا أصابعَ فيكتور جارا الناطقةَ بالموسيقى والجمال، ومثلما ذبحوا ابراهيم قاشوش واقتلعوا حنجرتَه الصادحة بالعذوبة.

حادثة وفاة

أُخرج المتوفّى "محمود الحميش" ابن الستين عاماً من مشفى "القدّيس لويس" في حلب، بعد مضيّ أسبوعٍ على إدخاله للاستشفاء. مشفى القديس لويس "فريشو سابقاً" أحدُ المشافي التي شُيّدتْ إبّان مرحلة الاستعمار الفرنسي.

الوقتُ مساء. والسفرُ إلى الأهل سيستغرقُ شطرَ اللّيل الأّول، فالمسافةُ بين "حلب" و"تل أبيض" تتجاوزُ الثلاثمئة كيلو متر. والطرقاتُ! طرقاتُ أيام زمان. نصفٌ معبّد ونصف غير معبّد.

بعد مساوماتٍ تشدّد فيها سائقُ الأجرة عندما علم أنّه سينقلُ جثّةً، اتّفقوا على أُجرةٍ هي في كلّ الأحوال غير مُتهاوِدة. لكنّ إحساسَ الابنين بالإهانة إذا ما استطالتِ المساومةُ بينما جسد أبيهما مُسجى، جعلهما يحسمان الأمرَ، وينقلان الأبَ المتوفى إلى المقعد الخلفي للسيّارة.

قبل منتصف الطريق والسيارة تسيرُ بمُحاذاة الفرات تراءى للابن الأصغر، الذي إكراماً لأبيه جلس القُرفصاء بين جثته المستلقية على المقعد الخلفي والمقعد الأمامي حيث يجلس أخوه والسائقُ، تراءى له أن يدَ أبيه انْتفضتْ. فتعوّذ بالله من الشيطان غير مُصدّق. مرّة ثانية وثالثة ورابعة كان الابن يرى أصابعَ أبيه تتلاعبُ. فجأة ارتفعت اليدُ وانتشرتِ الأصابعُ في الهواء، ثم ارتمتْ. صرخ الابن مرتعباً. وتوقفت السيارةُ...

بلا شكّ اعتقد السائقُ والأخ الأكبر أن أعصاب الابن الأصغر لم تعدْ تحتملُ الجلوسَ إلى جنْب صمت الميّت... حاولا أن يعطياه ماءً، وأنْ يجلساه بينهما في المقعد الأمامي. لكنّه ظلّ يرفضُ وهو يحاولُ الكلام، والكلامُ يستعصي في حلقه... أخيراً بعد محاولاتٍ ومحاولات قال وهو يتلعثم: إنّه حي...

شرع السائقُ وأخوه بتسْكين روْعه وإقناعه بأنّه يتوهّم، دون جدوى. بقي مُصرّاً ومُرتعباً... اقتربا من الجثة. لمسا جبينَ الميّت ورقبتَه. حاولا سماعَ دقّاتِ قلبه. حاولا جسّ نبضه. حاولا فتحَ فمه... دون إشارةٍ من حياة، لكنّهما لم يقطعا فيما إذا كان الميّت ميّتاً فعلاً، فقد أدخل اضطرابُ وهلعُ الابن الأصغر الشكَّ في قلبيهما.

بعد حديثٍ وجدل قرروا عرضَ الجثّة على طبيب. ولأنّهم يعرفوني، فقد تركوا المشافي وجاؤوا بعد منتصف الليل يقرعون الباب بعنف وإلحاح. خرجتُ إليهم. فباغتوني بالسؤال الذي لا يتمنى طبيبٌ أنْ يتعرّض له، ذاك السؤال الذي يكرهُه الأطباء ويجعلُ علومَهم تتطايرُ من رؤوسهم:

. يا دكتور.... افحصْ أبي... وأخبرنا هل هو حيّ أم ميّت؟

أنا كذلك... أعتقدُ أنني تجرّدتُ من علومي مدّةً كافيةً لأنْ تظهر عليّ الحيرةُ وأنا أقلّب جفن الجثّة، وأصغي إلى ضرباتِ القلب بوضع أذني مباشرةً على جدارِ صدره، وأضعُ مرآةً صغيرة أمام فمه لأرى إنْ كان بخار تنفّسه يتكاثفُ عليها أم لا. خرجتُ من حيرتي وقرّرت نقله إلى العيادة وأنا أستجمعُ العلومَ التي تعلمتُها كي أتّخذ قراراً من كلمتين "الله يرحمه"

هناك في العيادة، رأيتُ بوضوحٍ أنّ الحدقةَ لم تكن في تمام اتساعها، وأنّ العينَ نديةٌ رطبة، وخُيّل إليّ أيضاً أنّني أسمعُ ضرباتِ قلبٍ واهنٍ. طبعاً كان الضغطُ صفراً والنفسُ معدوماً أو أنّه سطحيٌّ لا يُلحظ.

هنا قرّ قراري على إجراء تنفّس اصطناعي وتدفئة المريض. بيني وبين نفسي بدأتُ أُسمّيه "المريض". شرعتُ بالضغط المتناوب على موضعِ قلبه والنفخِ في فمه. عشرُ ضغطاتٍ متتاليةٍ ونفخةٌ متطاولة... وإذا بالمريض يُدوّر عينيه فينا ويبدأ بتنفسٍ مُنتظم.

بعدها عاش "محمود الحميش" سنتين ونصف السنة. كانت ورقته لم تسقطْ بعدُ. كان أجله لم يحنْ، ولا تفسيرَ لديّ سوى أنّ ما يُسمّى في الطبّ "بالموت الظاهر" قد وقعَ لهذا الرجل، وأنّ الطبيبَ الذي كتب شهادةَ الوفاة لم يُدقّق كثيراً. اكتفى بعدم سماعِهِ لأصوات القلب، فحرّر شهادةَ الوفاة.

مطر دث

اليوم شمس بعد مطر دث في مدينتنا والجو مشبع بالأكسجين. الحقيقة يمكنني القول إن اليوم يوم ضاحك ساخر عابث مليء باللهو مع كل هذا الذي يجري في سوريا، و ما يجري هنا عندي.

هذه المقدمة كي أخبركم أن النرويج بلد متقدم في كل شيء وفي الطب أيضاً، ومع ذلك نسي الأطباء أنبوباً دقيقاً من اللدائن في حالبي الأيسر ممتداً من الكلية إلى المثانة، ركبوه أثناء العملية الأخيرة، قبل ثلاثة أشهر. بقي الأنبوب لمدة ثلاثة أشهرمتموضعاً هناك بلا لزوم و مع التسبب بالأذى، تصوروا! و كنت خلال هذه المدة أحس بالوخز و بفرخ صغير ينقر بخاصرتي و يسبب شعوراً غريباً بعدم الارتياح.

اليوم كان موعد الدخول إلى مثانتي عبر المنظارللمراقبة، وفجأة قال الطبيب: ما هذا؟ بطريقة أوقعت قلبي، وخمنت أن ورماً بحجم صخرة قد نما وجعل الطبيب يفغر فاه. علماً أن النرويجيين شديدو البرود ولا يظهرون مشاعرهم. قال محرجاً مازال الأنبوب الذي وضعناه في العملية موجوداً، نسيناه وسنخرجه الآن. حضرتي انخفض لدي التوتر وتحمدت الله أن ما رآه الطبيب ليس جبلاً من الخلايا الخبيثة، و إنما إنبوباً منسياً.

حاول كثيراً بإدخال مقابض دقيقة موصولة بأسلاك أن يجذب الأنبوب لكنه فشل.

و في لحظة لا أعرف كيف أقيمها اعتذر مني على نسيانه للأنبوب، وأخبرني أنه سيذهب إلى مكتبه و يلقي نظرة فاحصة على ملفي على الكمبيوتر ويعود سريعاً مع زملاء آخرين. لم يعد. بل جاء بدلاً عنه أطباء عدة. قلت أطباء!. الحقيقة كنّ كلهن طبيبات. واحدة منهن وهي التي يبدو عليها أنها الرئيسة طمأنتني بالكثير من الكلمات الطيبات والابتسامات الواسعة وبالهدوء البارد بينما كانت الأخريات يجهزن المنظار، والملقاط ذا السلك الطويل، و أنبوبة التخديرالموضعي من جديد. و في أقل من دقيقة أخرجت الطبيبة الجراب الطويل.

كان الموعد موعد مراقبة و لكنه تحول إلى التخلص من الأنبوب المنسي.

ملاريا

في صيف 1969 كنت صبياً. والعائلة في ضنك. قلتُ ولكْ يا محمد اشتغلْ وجيب مصاري. بحثت وبحثت عن عمل حتى وجدته في دائرة الملاريا، هكذا كان اسمها وقت كانت الملاريا مستوطنة في الرقة وفي واديي الفرات والبليخ؟

شغلنا هو أن نحمل على ظهورنا تعليقاً على الأكتاف مضخاتٍ تعمل تحت الضغط، ونبخّ منها عبر خرطوم ضيق وفتحةِ بخّ تسمح للسائل أنا ينْفرش على مساحة واسع. مهمتنا ملاحقة البعوض وقتله في زرائب الحيوانات والبيوت. نملأ المضخات بعد أن يمزج ال ددت مع الماء أمْ كان اسمه "دلدرين". نسيت. من يقوُم بالمزج عادة ما يكون أضعفنا قوة وتحملاً، واللقب الوظيفي لمن يقوم بذلك هو "المازج."

كنا ننطلق في شاحنتين وفي الطريق نشرعُ بالهتافات

سائقنا يضرّط سائقكم

في يوم خميس وفي طريق العودة والفرح يكاد يطير بنا لأن الغد عطلة. و كنتُ قد استلمت وظيفة المازج في فريقنا لأن مازجنا مريض. ولأن الهتاف ظلّ هو هو(مازجنا يضرط مازجكم) فأنني امتلأت فخراً لأن صوت فريقي كان عالياً جداً وأعلى بكثير من صوت الفريق الثاني، حتى إن أهل القرى التي نمر بها كانوا يخرجون من بيوتهم ليروا مشهدنا الغريب وهتافنا الأغرب. فجأة قلّت سرعة سيارتنا وخرجت عن الطريق واتكأتْ على كتف ساقية ماء. بدا الأمر كما لو أن التعب قد هدّ شاحنتنا وأرادت أن تنام، ولحسن حظنا كان جدار الساقية ترابيا عالياً وضخما. أمرٌ مضحك يشبه أنه لم تكن حادثة ولا خطورة

حقيقة جرى الأمر هكذا خفّت السرعة. اتكأت الشاحنة. وبقيت العجلات العليا تفتل في الهواء. ولا شيء آخر لم يصب أي منا ولم تتأذّ مُعدّاتنا .

المصيبة أن الفريق الآخر اشتعل بالنشاط وراح يعيرنا ونحن جلوس على كتف الساقية ننتظر أن يأتوا بجرار ليساعد في إخراج السيارة من الأخدود الضحل.

يهزجون ويضحكون

مازجنا يضرط مازجكم

يهزون أيديهم في وجهي: مازجنا يضرط مازجكم. يشيرون بأيديهم وبأصابعهم الوسطى... وأنا أنشحن وأنشحن. وفريقي صامت وكأنهم غير معنيين. بدا لي فريقي مؤلف من أولاد كسالى تعساء مثل خرفان عطشة في زريبة. وأنا أنشحن وأنشحن. أذكر أنني لم أغضب مثل غضبت وقتها. كنت غاضباً إلى حد جعلني أرى الإسفلت أمامي يتموّج في وهج الشمس مثل نهر من سراب. يتقطّع ويتواصل عالياً وسافلاً. العرق يتصبب من جبيني، وبعض القطرات تعلقُ برموشي وترسم كرات ضخمة من نور ملون تبدو بعيدة؛ أبعد من الأفق أحياناً، وأحياناً قريبة يكاد

مِلحُها يحرق عيني

بغتة فقدتُ السمع. انسدتْ أذني. لاصوت. صمت وسكون. أيادٍ تؤشر وأفواه تصيح بلاصوت. وبغتة أيضاً نهضتُ وركضتُ تجاه السيارة.

خطفتُ مضخة. استدرتُ. وكان كل أفراد الفريق الآخر قد ركضوا خلفي. رأيتهم دون أن أعي قريبون جداً منّي، حتى أنوفهم وعيونهم كانت كبيرة ومُقرفة. يبعصون الهواءَ بأصابعهم الوسطى، ويفتحون أفواههم ويغلقونها. وأنا لا أسمع ولا أحس بشي سوى أنني يجب أن أفعل شيئاً. بحثت عن المازج الآخر. كان قريباً. خبطتُهُ بالمضخة على رأسه فنفر الدم مباشرةً. أذكر عينيه الهلعتين ثم سقوطه على الأرض. رحتُ أضرب وأخبطُ يميناً وشمالاً وهم يهربون، إلا أن وجدتُني بين أياد كثيرة تنضح الماء على وجهي وعلى ثيابي .

انفتح سمعي فجأةً وسمعتُ اللغط وفي العيون رأيت تعبيراً غريباً لن يزول من ذاكرتي.

هل تنبتُ المرارةُ من جديد؟

لم يمضِ على افتتاحِ عيادتي الريفية سوى بضعة أسابيع، لم تكن كافيةً لأنْ أمتلىء ثقةً مثلما هُمُ الأطباء عادةً. لكنّني كنتُ قد تجاوزتُ رهبةَ الانتقال إلى الممارسة العمليّة. ليس هذا بالقليل طبعاً!

عيادتي الأولى هذه كانتْ في بلدة "تل أبيض" الواقعة على الحدود التركية. بلدةٌ صغيرة. ناسُها ريفيّون بطباع مُتناقضة، تجمع بين البساطة والمزاح الدائم، وبين نوعٍ من الحذر تجاه الموظّفين والمتعلّمين القادمين من المدن.

لسوء الطالع ذات مساءٍ، انقطعتِ الكهرباءُ، وهي كثيراً ما كانت تنقطع، وما زال لديّ بعضُ المرضى. ولأنّ الريفيين متعجلون أبداً، فقد اقترحوا عليّ معاينتهم على ضوء الشموع. كان الأمر بالنسبة لي غير مقبول، لكنّني كنتُ آنذاك سهل المراس مُتردّداً في قراراتي، مما دفعني إلى القبول، خصّيصاً أنّ الجميع يعلم أنّ الكهرباء قد لا تأتي حتى الصباح.

مرّت الأمورُ بسلامٍ إلى أنْ جاء دورُ المريضة الأخيرة، وهي امرأةٌ جاوزت الخمسين. عليكمْ أنْ تلاحظوا أنني كنتُ في الرابعة والعشرين. طويل القامة. نحيف. وشاربي ليس بالكثافة المطلوبة. باختصار لم تكنْ لي هيبة الطبيب.

استلْقت المرأة على سرير المعاينة. وكالعادة التي لن أغيّرها في قادماتِ الأيّام، رحتُ أستجوبُ المريضةَ بدقّة، وهي تتبرّمُ من أسئلتي التي كانتْ تبدو لها غير ذات جدوى. ثم بدأتُ الفحصَ، بعد أنْ علمتُ أنّها تشكو من ألمٍ ناحيةَ الكبد. هنا عليّ أنْ أجسّ الكبد، وأُحدّد حافّته لأعلمَ إذا ما كان مُتضخّماً أم لا، وعليّ أنْ أطلبَ من المريضة أنْ تسحب نفساً عميقاً وتحبسُهُ، بينما أدفعُ أنا أصابعي بلُطفٍ تحت حافّة الأضلاع، تماماً على النقطة التي تُسمّى "نقطة مورفي". بمناوراتٍ عدّة استطعتُ أنْ أُحدّد أنّ المريضة تتألم من هذه النقطة بالذات، مما يعني أنّها مصابةٌ بالتهاب المرارة أو بحصاة فيها.

قلتُ متعجّلاً :

ـ الأمر بسيط... التهاب في المرارة أو حصاة... سأكتب لك دواءً، ستتحسّنين عليه إنشاء الله... لكن إن لم تتحسّني، سأحيلك إلى المدينة كي تُجري صورةً للمرارة، وربما احتاج الأمر لعملية إن كانت حصاة.

لاحظتُ منزعجاً أن المرأة نفضتْ يدها بحركة تدلّ على استهانة وعدم تصديق. أعدتُ الكلمات ذاتها مُشدّداً على اللفظ الصحيح، توكيداً وتخميناً منّي أنّها لم تسمعْ جيّداً أو أنّها لم تفهم. لكنها باغتتني:

ـ لكنّني بلا مرارة... بلا مرارة يادكتور! أنا عملتُ عملية جراحية للمرارة قبل عشر سنوات.

كان ضوء الشموع يتراقصُ واهناً على بطن المريضة، قربت شمعةً وفعلاً لاحظتُ خطّ العملية واضحاً ذا لون فارقٍ عن مساحة الجلد، فأُسقِط في يدي. وانتابتني حالةٌ عنيفة من لَوْم الذات. لماذا لم أدقّق بنظري؟ لماذا نسيتُ أحد أهمّ وسائل التشخيص التي تعلمتُها أي ما يسمّى "بالمشاهدة" ويعني التحديق بالعينين؟ لماذا أصلاً قبلت أن أعمل دون كهرباء وعلى ضوء الشموع؟

طبعاً يمكنني أن أبرّر أنا و زملائي الأطباء بأنّ جُذْمور المرارة، أي المتبقّي من القناة المرارية بعد العمل الجراحي، يمكنُه أن يولّد ألماً يشبهُ ألمَ المرارة تماماً، ويعطي علامةً إيجابية في نقطة "مورفي". لكنْ تعالَ اقْنعْ امرأةً لا مرارةَ لديها، وأنتَ قدْ تورّطتَ وشخّصتَ لها بكلامٍ واضح، بلْ وأعدته مرّتين، أن مرارتها مريضة! تعالَ إقْنعْها بجذمور المرارة وألمه! وتصوّرْني في ذاك الوضع أتلعثمُ وأتعرّقُ وأنا أشرحُ بكلماتٍ علميّة لامرأة لم يكن لديّ شكّ في أنّها ستمزّقُ الوصفةَ ما إنْ تخرج من العيادة.

أذكر أنني رحت أسخر من نفس خجلاً زمناً طويلاً وأكرر همساً: "جذمور مرارة هااا ... جذمور مرارة يا أهبل!"

يلعن دين الحمام... ك.أخت النظافة

من صغري تعقدت. نحنا ثمانية أخوة وأخت. وكانت أمي تسوي لنا حفلة حمام ما هي إلا تعذيب بتعذيب. الماء ساخن. وأنا أكره الماء الساخن. ساخن ساخن يعني يسلط الجلد. وكانت أمي تقول لما أعترض إنو المي الساخنة تطالع الوسخ. الباردة تجمده. الباردة عندها هي الدافئة والأقل سخونة. وكله كوم والحسك بكيس الحمام الخشن كوم. تحسك حسك كأنها تحسك حراشف سمك. وتشوفنا الفتايل وتقول شايف الوسخ شايف الفتايل. لما كبرت وصرت طبيب عرفت إنو تلك الفتايل ليست وسخ وإنما الطبقة الأولى للجلد والخلايا شبه الميتة من الجلد. مرة شرحت لها إنو هذي الفتايل التي كنت تشوقينا إياها بالحقيقة ما هي إلا جزء من خلايا الجلد. ردت علي "أي وحياة أمك!" تلك كانت جملتها عندما تشك بكلامي. وثالثة الأثافي كانت الهبط بصابون الغار التي بصلابة حجرة صوان وبثقلها، ولما تهبط عالراس والقدمين والأضلاع مثلها مثل حجرة مقلاع من يد قوية. والأنكى أن غار أيام زمان يحرق العينين ويخلي الواحد ينشغل بفرك عينيه بلا توقف.

الحق يقال كنا نرتاح بعد الحمام لكن يكون إحساسنا مثل إحساس الجزرة المقشرة.

لما كبر وصرت أستحي أنها تحممني كان تلطي خلف الباب أو البرادية وتشغل اسطوانتها "افرك زين ورا إذانك. حك مغابنك بالكيس. لا تنس مطاوي ركبك. خلل بين أصابع رجليك وافرك بقوة وشوف شلون تطلع الفتايل...الخ" وكنت أغش بخلط الماء شبه الغالي بالماء البارد، فتحس وتقول "لا تخلط... الحز الوسخ يجمد على جلدك" وأحلف لها إنو بس نص طاسه، بينما أكون أضفت أربع طووس.

أظن من عقدتي من الماء الحار وحرق الصابون وتقشير كيس الحمام، وعندما استقليت تماماً وصرت رجلاً وكلما عدت من العيادة آخذ دوش ماء بارد. بارد. حتى إنو طبيب الأذنية في الرقة الذي كان يعتني بي نتيجة لالتهاب الجيوب والبولييات الأنفية. قال لي شو رأيك إنو جزءاً من العوامل "لجيوبك" هو الماء البارد. قال ياخي إحنا مولودين في بلاد حارة وجسمنا فيه جينات ووراثة الحر والسخونة وليس البرودة.

يلعن أبو النظافة يلعن أبو الحمام. وخصوصاً حمام أيام زمان .

وترى لازلت أتدوش بماء بارد بارد حتى وأنا مقيم في النرويج.